The Phenomenon of Contradictory Integrations and its Manifestations in the Language of Wisdom in Imam Shafie Collection of Poems: Study of Minor Language Levels

Amina Salem Al-Daihani*

Abstract

This is a philological approach for poetic group at Imam Shafie collection of poems to tackle such a unique philological phenomenon, which is the integration among different aspects. The study coined it as contradictory integrations. The study asks the following questions: (1) what are the aspects of linguistic method of exdopression for such phenomena? (2) what is its role in making the text formation? and (3) how do its manifestations highlight the object of wisdom? The study has elaborated the concept of wisdom, defined its contradictory integrations by clarifying its linguistic media, and detected its contextual vessels and different types. It shows its manifestations as to language of wisdom in the minor linguistic levels. The study followed an inductive analytical approach to reach conclusions, including: the classification of contradictory integrations in special expressive contexts. Thus, the study tackled expressive contradictory styles; yet as to their morphological manifestations, it started to identify their grammatical scales and showed the meaning of stability and variability in the integration of different contradictions. As to lexical manifestations, they appear in meaning agreement between face to face contradictions, and find it proper between terms and meanings and their lexical fields and others.

The study showed how Shafie passed the limits of stylistic manifestations with their abstract and systematic method towards their aesthetic aspect. This analysis has been done by using the denotative output. Such a study, in its originality, supports the research approach, and such methodological approach may be absent in the modern linguistic lesson. Hence, the research approach needs to reach the depth of such a phenomenon to verify its definition, basics, their linguistic and artistic values in achieving the text structure and completion of its pillars.

Keywords: Contradictory Integrations, Text Formation, Wisdom, Minor language Level.

* Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Kuwait University. ameena.aldehany@ku.edu.kw

Submitted: 21/2/2022, **Revised:** 31/10/2022, **Accepted**: 6/11/2022.

https://doi.org/10.34120/0117-041-163-001

To cite this article/ الإشارة المرجعية للبحث

الديحاني، أمينة: " ظاهرة المتضامات المتضادة وتجلياتها في لغة الحكمة بديوان الإمام الشافعي- دراسة المستويات اللغوية الصغرى"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت: العدد 163، 2023، 11-44 .

Al-dīḥānī, amīnh: " ẓāhrẗ al-mtḍāmāt al-mtḍādh ü tǧlīāthā fī lġẗ al-ḥkmh bidīwān al-imām al-šāf ī- drāsh al-mstwyāt al-lġwyh al-ṣġrā", *Arab Journal for the Humanities*: 163, 2023, 11-44 .

ظاهرة المتضادات المتضادة وتجلياتها في لغة الحكمة بديوان الإمام الشافعي- دراسة المستويات اللغوية الصغرى

أمينة سالم الديحاني *

الملخص

هذه مقاربة لسانية لمجموعة من المقولات الشعرية في ديوان الإمام الشافعي، تُجَلّي ظاهرة لغوية يكاد يتفرد بها، وهي الائتلاف بين جوانب الاختلاف، وقد اصطلحت الدراسة على تسميتها بالمتضادات المتضادة، وتطرح الدراسة تساؤلات افتراضية؛ منها: ما خصائص النهج اللغوي للتعبير عن تلك الظاهرة؟ وما دورها في إحداث السبك النصي؟ وكيف أبرزت تجلياتها غرض الحكمة؟ وقد شرعت الدراسة بعرض مفهوم الحكمة، والتعريف بالمتضادات المتضادة، وبيان وسائطها اللغوية، ورصد أوعيتها النسقية وأنماطها المختلفة، وإظهار تجلياتها على لغة الحكمة في المستويات اللغوية الصغرى، وقد سلكت الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي وصولاً للنتائج؛ ومنها الخروج بتصنيف المتضادات المتضادة في أنساق تعبيرية؛ نحو الجمع بين النقيضين في الشيء الواحد والمتعدد، ومناقضة الشيء لنفسه، وغير ذلك، كما وقفت الدراسة على أنماط التعبير بالضدية؛ ومنها ما تندرج في حكم التضاد الموجب أو السالب أو البائن أو المركب أو المجازي، وبيان تجلياتها الصوتية بما تحمله من ملامح تمييزية؛ وإظهار سيميائية الأصوات والمصطلحات الصوتية فوق الثانوية، والتماس إيقاعها الصوتي. وأما تجلياتها الصرفية فبدت بقولبتها في أوزان صرفية خاصة، تدل على معاني الثبات والتغير في تلازم المتضادات أو تنافرها، وإحداثها التوازن الصرفي باستخدام المحسنات البديعية. وأما التجليات المعجمية فتظهر في العقد المفاهيمي بين المتنافرات بنطاق تقابلي، وإيجاد المناسبة بين الدوال والمدلولات وفقًا للحقول المعجمية، وتفصيل المجمل وتخصيص العام، والتقسيم اللفظي في السرد التضامي، وإحداث التجانس المعنوي والجناس اللفظي.

وبينت الدراسة كيف تجاوز الشافعي حدود هذه الظاهرة الأسلوبية بتصورها التجريدي ونظاميتها إلى استقراء جمالياتها؛ وذلك باستغلال الناتج الدلالي، وصناعة الفارق الأسلوبي، وسبك النص ببنيتيه السطحية والعميقة، والوصول إلى سببية انتخاب تلك البُنى في مسائل التعدد والاختيار، وإقامة الحجة العقلية عليها. وهذه الدراسة في أصالتها تدعم الحركة البحثية، وتدعو إلى إبداء ما يكتنف الإرث الشعري من ظواهر، وتحليلها على جميع المستويات اللغوية، وهذا مسلك منهجي قد يكون مغيّبا في الدرس اللساني الحديث، كما أن المعالجة البحثية تحتاج إلى سبر أغوار تلك الظواهر؛ للوقوف على ماهيتها، واستدراك عوالقها، وبيان قيمتها اللغوية والفنية في تحقق بناء النص، واكتمال أركانه.

الكلمات المفتاحية: المتضادات المتضادة، السبك النصي، الحكمة، المستويات اللغوية الصغرى.

* أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الكويت. ameena.aldehany@ku.edu.kw

الاستلام: 2022/2/21 ، التعديل النهائي: 2022/10/31 ، إجازة النشر: 2022/11/6

https://doi.org/10.34120/0117-041-163-001

To cite this article/ الإشارة المرجعية للبحث

الديحاني، أمينة: " ظاهرة المتضادات المتضادة وتجلياتها في لغة الحكمة بديوان الإمام الشافعي – دراسة المستويات اللغوية الصغرى"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت: العدد 163، 2023، 11-44 .

Al-dīḥānī, amīnh: " ẓāhrẗ al-mtḍāmāt al-mtḍādh ū tḡlīāthā fī lḡẗ al-ḥkmh bidīwān al-imām al-šāf ī- drāsh al-mstwyāt al-lḡwyh al-ṣḡrā", *Arab Journal for the Humanities*: 163, 2023, 11-44 .

المقدمة

يلزم التحليل النصي الأدبي الوقوف على عقد الصلة بين اللغة والأسلوب، فالأسلوبية منهج بحث ينظر إلى النص الأدبي بوصفه كيانًا قائمًا بذاته، فيخضِعه للتحليل لإبراز ما فيه من ظواهر أسلوبية كامنة في بنية التركيب، واستكناه ما بها من جماليات تعبيرية، ويقف هذا البحث على دراسة أسلوبية الإمام الشافعي[1]، الذي جمع بين الدين والدنيا فيما يدونه أو ينظمه، فهو عالم في القرآن الكريم، وإمام في الشعر الحكيم، وقد اتسمت لغته بفصاحة اللسان، ونصاعة البيان، وسَما بفكره سنام النباغة، واعتلى بلغته ذروة البلاغة، وأصقلت قريحته الشعرية ممازجته بين التأدب بأدب البادية، وتعلمه لعلم الحاضرة.

وبإجراء الاستقراء النقدي لديوانه؛ نجد أنه ينطوي على خصائص مائزة، تفرّد بها عن غيره من الشعراء، ولعل أبرزها على الإطلاق طابع لغة الحكمة، التي انعكست على مفرداته وتراكيبه؛ مما دفعنا إلى دراسة الهيكل البنائي لنصوصه الشعرية، وتحليل أنساقها، التي تدل على رؤية ثاقبة في التجارب الحياتية، التي بدت في إطار تنظيري يمتاز بسلاسة النظم، وبلاغة اللفظ، ووضوح المقصد، وهذه الأمور مجتمعة تتعاضد فيما بينها؛ التي تُظهِر هيمنة لغة الحكمة على المستويات اللغوية المتباينة في معظم أبياته، وقد ارتأينا أن نتطبع بأسلوب الشافعي، ونقتدي بلغته الحكيمة، ونهتدي بطرائقه اللغوية في سبك النص الشعري؛ ومنها دراسة أثر الطباق والتضاد في صياغة مفهوم الحكمة لديه، وبيان دورها في إمتاع المتلقي في التقسيم النظمي، والاقتناع بمقصد الناظم؛ وهذه الرؤى التطلعية تصوغ التساؤلات الافتراضية للبحث، ويُتوقَّع الإجابة عنها؛ وهي:

- ما حد الحكمة لغة واصطلاحًا في شعر الإمام الشافعي؟
- ما الوسائط اللغوية والفنية التي اتخذها لعرض طرحه الشعري، وسبك أركانه؟
- ما المقصود بالسبك المصطلحي (المتضامات المتضادة)، وما أنساقه وأنماطه؟
- ما أثر المتضامات المتضادة في إحكام السبك النصي، والإيضاح الدلالي؟
- كيف شكّل الإمام الشافعي بناءه الشعري من الوحدات اللغوية الصغرى، وما أثر تجلياتها في صنع الفارق الأسلوبي؟

- هل يمكن استنطاق الحكمة من مقول يحتمل موقفًا ذا توجهين متعاكسين، وإلى أي مدى يتحكم الشاعر في توجيه دلالة الحكمة في نظمه الشعري؟

وللإجابة عن تلك التساؤلات الافتراضية؛ جاء البحث في ثلاثة محاور رئيسة غير التمهيد والمقدمة والخاتمة؛ المحور الأول: يشرع فيه بتسليط الضوء على الخصائص المائزة لشاعرية الإمام الشافعي، وبيان أدوات السبك النصي في شعره، وهي في مجملها تخدم الغرض الشعري (الحكمة)؛ ومن أدواتها الإفصاحية ما يتعلق بإحدى العلاقات الدلالية، وتتجلى في شقين؛ الأول: التضاد بين المفردات، والثاني: التقابل بين الجمل، وبهما يتم الجمع بين المتنافرات والمتباينات، وقد قصرنا موضوع الدراسة على الشق الأول، الذي اصطلح البحث على تسميته بالمتضامات المتضادة، التي جاءت بصورة جامعة وبينية لمفردتين، تعلوها صبغة لغوية وفنية خاصة، وسيتعرّض لها البحث بالتحليل والتفسير في المستويات اللغوية الصغرى (الصوت والصيغة والمفردة)، وأما المحور الثاني فيقدم تعريفًا لظاهرة المتضامات المتضادة في شعر الإمام الشافعي، وبيان أنساقها وأنماطها وخصائصها، وأما المحور الثالث: ففيه إظهار لتجليات تلك الظاهرة في أطروحاته النظمية؛ التي بدت واضحة عند تحليلها صوتيًّا وصرفيًّا ومعجميًّا، وبيان دور الأصوات والصيغ والألفاظ في صقل لغة الحكمة لدى الشاعر، وإظهار جمالياتها، وتحقيق الغرض منها باتخاذها غاية سامية، تنير فكر الإنسان، وتقوم سلوكه.

وقد أخضع بعض الباحثين أبيات الشافعي للبحث والدراسة، وقاموا بتحليلها من مستوى لغوي واحد، أو مستويين لغويين كحد أقصى، وارتكزوا في أعمالهم البحثية على الجانب البلاغي أو النحوي، في حين استنكر بعض منهم غياب الدراسات اللغوية المتكاملة؛ ومن الدراسات السابقة -التي اختصت بتحليل الجانب الأسلوبي في ديوان الإمام الشافعي- رسالة دكتوراه لباحث ماليزي (Moshood Kamorudeen Ishola)؛ وهي بعنوان: (التماسك والانسجام في ديوان الإمام الشافعي: دراسة تحليلية في نظرية نحو النص)، وقد قام فيها بتحليل مجموعة من قصائده وفقًا لمعياري نظرية نحو النص؛ وهما: التماسك والانسجام، وركَّز فيه الباحث على الجانب المختص بعلم اللغة، وعلى نحو يغاير سابقيه، الذين أخضعوا ديوان الإمام الشافعي للدراسة النقدية، واقتصروا على

الجانب المجازي فحسب، وهدف الباحث إلى تحديد مدى استجابة هذه القصائد للمعيارين المذكورين، وذلك بالوقوف على تحليل الجوانب اللغوية المختلفة لاستبصارها[2].

وهذه الدراسة ستركز في التحليل اللغوي على الشق الأول، التي تشمل المستويات اللغوية الصغرى (الصوت والبنية والمفردة)، أما الشق الثاني المتعلق بالمستويات اللغوية الكبرى (التركيب والدلالة والسياق) فسوف نرجيء تحليلها في دراسات قادمة بإذن الله، وقد ارتأينا تقسيم الدراسة إلى هذين المسلكين؛ حتى تنال تلك الظاهرة حقها من البحث والتحليل والمعالجة.

التمهيد

لغة الحكمة ومقوماتها

موضوع الدراسة قائم على غرض شعري سامٍ، تفرَّد به الشاعر البليغ والحكيم الإمام الشافعي، الذي له لغته الخاصة في إسداء النصح والإرشاد في مقولاته الشعرية، وهي تُنشَد كمضرب للأمثال والحِكَم. وقد استقى الإمام الشافعي الحكمة من روافدها، وسانده في تكوينه الشخصي والأدبي ظروفه وتنقلاته، فقد حفظ القرآن وهو في سن السابعة، وحفظ الموطأ للإمام مالك بن أنس، وقد اتجه لتعلم العربية بارتحاله إلى هُذيل، ثم انتقل إلى المدينة طلبا للعلم والأدب والدراسات الشرعية، ثم رحل إلى اليمن ثم بغداد، فأخذ يلقي الدروس وينشر العلوم، وقد جمع بين المذاهب الفقهية: فقد كانت حياته سلسلة من حلقات التعلم والتعليم، وكان دائم التطواف والتجوال طلبا للعلم ومتزودًا بصنوفه، وهذا الترحل والتزود العلمي أكسبه الرؤية الثاقبة في الأمور والمصائر، وأوثق عُرى الحكمة لديه.

وقد دوَّن الإمام الشافعي بمداد قلمه موضوعات ومعاني عظيمة، صيغت كلها في إطار الحكمة، وموهبته الشعرية لم تسع عمقه الفكري، وقد فاض شعره بموضوعات حيوية، تُرشِد الناس، وتنظم علاقاتهم الاجتماعية والحياتية؛ كالصحة، والصداقة، والأخلاق، وتغيرات الزمان وتبدلات الأحوال، وكانت معظم معانيه الشعرية تنصب في المجرى الموصل لله، والرجاء منه، والتأمل في عاقبة الأمور، والمصير المؤول إليه، والتهيؤ للمعاد، والسمو الخلقي، والتوكل على الله، والرضا بالقضاء والقدر، والغنى بالقناعة... وغيرها،

وهو في كل ذلك آية جليلة في ندرة الشعر، وذخيرة في اللفظ، ووفرة المعنى، وهذه الدراسة ستعرض الوسائط اللغوية التي دعمت لغة الحكمة لدى الإمام الشافعي، وستظهر تجلياتها البائنة عليها؛ ومنها وسيط التضام اللغوي.

المبحث الأول: التعريف بأبجديات التضام

أولًا- التضام لغة واصطلاحًا

التضام لغة من (ضمم) و"الضّمُّ: ضَمُّكَ الشيء إلى الشيء، وقيل: قبضُ الشيء إلى الشيء، وضمه إليه يضمه ضمًا فانضم وتضام [...] الجوهري: ضممت الشيء إلى الشيء فانضم إليه وضامه"[3]، وبحسب ما ذكره ابن منظور والجوهري؛ فإن مفهوم التضام لا يكاد يخرج عن جذر (ضمم)، وأما البلاغيون فقد اهتموا بالتضام باعتباره قائمًا على تلاحم أجزاء النص الأدبي، وما يضفيه التضافر من أبعاد دلالية، وظلال تأثيرية على النص بشكل تكاملي، "فالبلاغيون العرب [اعتنوا] بالكشف عن الترابط القائم بين سلسلة الأقوال المؤلفة لفقرة أو مجموعة أجزاء من العمل الأدبي، ونجد هذا واضحًا فيما كتبه حازم القرطاجي (ت 684هـ) الذي سلط الضوء على العلاقات الترابطية لأجزاء القصيدة"[4].

والتضام –وفقًا لما سبق– هو الانتظام والاجتماع والاكتمال والاتساق، وهذه معانٍ لا تخالف المفهوم الاصطلاحي في كتب الاختصاص حول لسانيات النص، الذي يشير إلى الكيفية التي يتم من خلالها الربط بين العناصر اللغوية على مستوى البنية السطحية، والربط بين التراكيب على مستوى البنية العميقة، حيث يشير تشومسكي (1957) في نظريته إلى أن هناك مستويين في التركيب النحوي في كل جملة، الأول: يُسَّمى بـ"البنية العميقة "Deep Structure [5]"، وهي تقوم بدور مهم في تفسير الجمل، والثاني: يُسمَّى بـ"البنية السطحية Surface Structure"، التي تتشكّل من خلال تطبيق التحولات المناسبة للجملة المعنية، ويذكر أن الهيكل العميق للجملة –بوصفه محدداً دلاليًا لها– له سبع طرائق مفاهيمية[6]؛ هي:

- الهيكل العميق هو ناتج قواعد بنية العبارة.
- البنية العميقة هي مدخلات القواعد التحويلية.
- البنية العميقة هي المستوى الذي يتم عنده إدخال العناصر العميقة.

- البنية العميقة هي المستوى الذي يتم عنده مفهوم الذات والموضوع.
- البنية العميقة هي المستوى الذي يتم فيه تطبيق قواعد تقييد الاختيار.
- البنية العميقة هي المستوى الذي يتم عنده استنباط (كشف) معنى الجملة.
- البنية العميقة هي المستوى الذي يتم فيه حل الغموض.

فالتضام بمفهومه اللغوي الذي تعرّض لبيانه علماء اللغة بجميع انتماءاتهم ومشاربهم المعرفية، وما تم تداوله في الدراسات النقدية على سبيل الدلالة والاستئناس لتبرير حكمه ونفيه، يشير صراحة إلى إحداث التماسك والتراصف والترابط والالتحام بين أجزاء النص، وحبك أركانه بوصفه نسيجًا واحدًا في السياق اللغوي، الذي يحيط بعناصره الصوت والبنية والمفردة والدلالة، كما يحيط بعناصر السياق غير اللغوي، و"تشتمل على المكان الذي قيل فيه النص، وما يتضمنه من أشياء تؤثر في الفهم، وتشتمل كذلك على الزمان الذي قيل فيه، والموضوعات والأشياء التي كانت موجودة في أثناء القول، وقائل النص أو المتكلم، وكل ما يتصل به مما له دخل أو اتصال بلغة النص، والمستمع أو المخاطب، والعلاقة بينه وبين المتكلم، وغير ذلك مما يتصل بالنص، ويتوقف عليه فهم المعنى المراد"[7].

وقد ارتأى البحث اتخاذ التضام مصطلحًا يؤلِّف بين المختلف، ويوحّد بين المتعدد من مجموعة المتضادات في منظومة هذا الشاعر الفذ، الذي استطاع أن يسبك مقولاته الشعرية بأدوات ووسائط مختلفة؛ ومن أبرزها آليات التضام النصي.

ثانيًا- وسائط التضام وآلياته

ما يحكم على جودة أسلوب الإمام الشافعي هو امتلاكه العلائق الترابطية، التي تعينه على تحقيق التضام النصي في المقولات الشعرية، وقد اتخذ وسائط مختلفة لتحقيق ذلك؛ ومنها التكرار، والإحالة، والتوازي، والتقابل والطباق... وغيرها. والتضام قد يتأتّى من خلال وسائط مختلفة بطريقة خطية، وذلك من خلال نقطة الانطلاق من نظم صدر البيت الأول حتى اختتام النص، ويتم ذلك برصد الإشارات المحيلة إليه إحالة قبلية أو بعدية في المنتج الكلامي؛ ومن تلك الوسائط ما يندرج في حكم العطف، والوصل، والفصل، والذكر، والحذف، والاستبدال، والاستدراك، والمقارنة... وهلم جرًا، وكلها تشكّل المُعطَى اللغوي

كلاًّ متآخذًا، وتجسد مفهوم الاتساق النظمي، وتعين المتلقي على إدراك مقصد المتكلم؛ من خلال فهم العلاقات البينية في منطوقه أو مكتوبه.

والبحث في مجال النص يعد من دراسات علم اللغة الحديث، الذي يقف على النص باعتباره منظومة لغوية متكاملة، لها أركانها وأجزاؤها، والتحليل اللغوي للنص يبدأ من الوحدات الصغرى إلى الوحدات الكبرى؛ أي بدءًا من جزئية النص بصوتيته، وانتهاءً إلى كليته بسياقه، فحتى يُحكَم على العمل البحثي بالعمق الإجرائي؛ يتوجب على الباحث أن ينظر للنص نظرة شمولية وعمومية، وفيه ما يعينه على الإلمام بوحداته اللغوية ومكوناته، والفهم العميق لمقصد المنتج النصي.

وصور التضام والتماسك النصي عند الإمام الشافعي كثيرة؛ لذا ستقتصر حدود الدراسة على واحدة من أبرز أدوات التماسك النصي، وهي ما تتعلق بمفهوم التضاد، الذي يوسَم بالعُرف البلاغي بـ"الطباق" أو "المطابقة"، ويذكر الحموي فيها: "الجمع بين الضدين، في كلام أو بيت شعر، كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والبياض والسواد"[8]، وهي في الدلالة تعرف بإحدى العلاقات الكائنة بين المفردات، التي منها التضاد اللفظي، وقد جمع البحث بين الكلمات المتضادة؛ من خلال صياغتها بمصطلح جامع بين التنافر في الإيحاء الدلالي، والتآلف في التجاور السياقي، وقد أطلق البحث على تسميته بالمركب الاصطلاحي (المتضامات المتضادة).

وهذا المركب المصطلحي يحمل مفهومين متناقضين لمصطلحين متغايرين؛ هما: مصطلح (التضام) بمفهوم الإيجاب بوصفه واحدًا وسائل اتساق النص، ومصطلح (المتضاد) بمفهوم السلب بوصفه أحد العلاقات الدلالية المتعاكسة الاتجاه، ونقصد بالتضام المتضاد "توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظرًا لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك [...]، فإن العلاقة النسقية التي تحكم هذه الأزواج في خطاب ما هي علاقة التعارض[...]؛ مثل: ولد، بنت، جلس، وقف، أحب، كره، ..."[9]، فاللفظان المتضادان قد يوظفان في نص، لا يعود عليهما عنصر إحالي موحد لمعناهما المعجمين، ولكنهما يسهمان في بناء النص واتساقه من خلال عنصر الضدية القائم بينهما. والمتضامات المتضادة في شعر الإمام الشافعي كثيرة، حتى بدت ظاهرة بارزة امتازت بها مقولاته الشعرية، وهي ذات تراكيب مختلفة، ومتباينة الصياغة، وقد عمد إلى هذا التنوع؛ ليدرأ عن المتلقي الرتابة في التتبع القرائي لمقولاته.

ثالثًا- أنساق المتضامنات المتضادة

يتجلى باتباع المنهج الاستقرائي التحليلي لمواضع المتضامات المتضادة في شعر الشافعي؛ أنها تنساق بأوعية وأنماط مختلفة، وذلك على مستوى تحليل الوحدات الصغرى، التي تبدو في علائق التوافق الأفقي بين الأصوات والصيغ والمفردات المتتالية، وهو توافق حاصل على مستوى الشطر الواحد أو البيت بأكمله، وعلائق التوافق الرأسي بين الأبيات المتوازية، وقد ضم شعر الإمام الشافعي أنماطًا مختلفة من المتضامات المتضادة؛ يمكن إيجازها بقوالبها الكلية على النحو الآتي:

1 - **الجمع بين النقيضين في الشيء الواحد**؛ كما في قوله:

أيقول: جاوزت الفرات ولم أنلْ ريًّا لديه وقد طغت أمواجه[10]

يظهر التضام المتضاد بين الفرات الذي وصفه بالزاخر وشحّته، حيث لم يظفر منه بما يرويه، فعاد عطشان، وكأنه يلمّح بهذا التضام إلى شيء يفترض أن يجد فيه ما يرجوه، وهو الكرم، لكن لم يرَ منه برًّا ولا نوالاً.

2 - **الجمع بين النقيضين في المتعدد**؛ ويمكن أن يُسمَّى بعدم اجتماع النقيضين في الشيء الواحد؛ ويظهر ذلك في قوله:

ولا ترجُ السماحة من بخيل فما في النار للظمآن ماء[11]

يطلب الشافعي ألا يرجو المرء الكرم من بخيل، فهو كالنار لا يُستَجدَى منها الماء؛ لأن النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله، فيظهر التناقض بين الشيء، وما يُظَن أن يحمله؛ والمتضامات المتضادة واقعة بين (السماحة× بخيل)، و(النار× ماء).

3 - **مناقضة الشيء لنفسه**؛ كما في قوله:

ملك الأكابر فاسترق رقابهم وتراه رقّاً في يد الأوغاد[12]

تجلت الأضداد بين (الأكابر× الأوغاد)، و(ملك× رقًّا)، ويظهر البيت التناقض الذي يحمله الشيء الواحد، ويشير فيه أن الزمان يستعبد الأخيار والأفاضل، ويذلّهم، ولكنه يوافق هوى الأوغاد والأشرار.

4 – **تحقق الشيء من خلاله نقيضه**؛ أي إقران الأضداد بالأدوار التبادلية فيما بينها؛ ومثاله:

يزيـد سـفاهة فأزيـد حلـمًا كعـود زاده الإحـراق طيبًـا[13]

استخدم الشاعر كلمتين متضادتين في حكم الطباق (سفاهة× حلمًا)، وقد وردتا في ظل التقابل بين جملتين فعليتين (يزيد سفاهة)× (فأزيد حلمًا)، وقد أشار –من خلال عقد المقارنة بين السلوكين المتناقضين– إلى أنه لا تتضح قيمة الشيء إلا بوجود النقيض له، فكلما استفزه السفيه وزاده من السفاهة زاد عليه الحلم، ثم يشبه الحالين المتناقضين بما يماثلهما، وهو عود البخور الذي كلما احترق زاد طيبًا.

5 – **تشبيه الشيء بضده**؛ وتكمن في هذه الخصيصة حقيقة التناقض في الجمع بين أمرين متناقضين، وتحويل تقابل المتنافرات إلى تماثل المتشابهات في الشكل دون المعنى؛ ولعل ما يؤكد ذلك قوله:

والتـبر كالـترب ملقـى في أماكنـه والعـود في أرضه نـوع من الحطب

فـإن تغـرَّب هـذا عـزّ مطلبـه وإن تغـرّب ذاك عـزّ كالذهـب[14]

يتبين في الأبيات أن المتضامات المتضادة قد تأتي بصورة المشابهة، فالذهب قبل استخراجه يظل مكانه كالتراب، لا قيمة تُذكَر له، ويُسمى تبرًا، كذلك عود الطيب ذو العبق المُنتشَى؛ لو ظل مكانه لكان نوعًا من الحطب، فالمتضامات المذكورة متشابهات في الأصل، ومختلفات في المنتج، وقد جنح الشافعي إلى إظهار الفروقات المعنوية والقيمية بين المتضادين (التبر) و(الترب) على سبيل التشبيه، من خلال توافر أركان التشبيه مجتمعة.

رابعًا- أنماط المتضامات المتضادة

1 - **تضاد الإيجاب**: ويكون إيجابًا متماثلاً بين متناظرين؛ ومما أورده من المتضامات المتضادة بصيغة الاسم المفرد قوله:

ولا حـزنٌ يـدوم ولا سرورٌ ولا بـؤسٌ عليـك ولا رخـاء[15]

حيث التضام حاصل بين الاسمين (حزن× سرور) و(بؤس× رخاء)، وفي هذا البيت إشارة إلى عدم استمرار الأمور كما هي عليه، بل الحياة بين متقلباتها سلبًا أو إيجابًا.

وقد يكون تضاد الإيجاب حاصلاً في صيغة الفعل؛ ومنه قوله:

ورزقــك ليــس ينقصــه التــأني وليــس يزيــد في الــرزق العنــاء[16]

وفيه يلمح الشاعر أن التمهل لا ينقص من الرزق شيئًا، كما أن السعي في المحرمات لا يزيده؛ لذلك على المرء أن يتأنَّى في كسب الرزق، ففضلاً عما ذكره البيت من تضام متضاد بين اسمين هما: (التأني× العناء)، فيه كذلك تضام حاصل بين فعلين بجملتين؛ هما: (ينقصه× يزيد).

ومن أنماط التضاد الإيجاب ما يدخل في الحرف، والحروف في العربية فيها ما يندرج في حكم الضدية من حيث الوضع أو الاتجاه؛ ومما أورده الشافعي في المتضامات المتضادة هو الجمع بين حرفين متعاكسين في المعنى الوظيفي، فحرف (عن) يفيد المجاوزة والاستغناء، وحرف (الباء) يفيد الاستعانة والملازمة، وهذه المعاني الضدية للحرفين المتضادين ظاهرة في قوله:

غَنِـيٌّ بـلا مـال عـن النـاس كلهم وليس الغِنَي إلا عن الشيء لا به[17]

حيث تجلى نقض الشيء لنفسه باستخدام حرفي الجر (عن) و(الباء) بتوجيهيها التقابلي الذي ذكرناه، وبهما كشف عن حقيقة جوهرية مفادها: ليس الغِنَى إلا عن الشيء لا به.

2 – **التضاد البائن**: ويكون في الجمع بين اسم وفعل يندرجان في حكم الضدية؛ كقوله:

إني رأيــت وقــوف المــاء يفســده إن ســاح طــاب وإن لم يجـرِ لم يطب[18]

تبينت علاقة الترادف اللفظي بين (وقوف) و(لم يجرِ)، وعلاقة الضدية قائمة بين الاسم (وقوف)، والفعل (ساح)، ويدعو الشافعي في سياق هذين المتضامين المتضادين إلى السفر والترحال بأسلوب توجيهي حكيم؛ ليُرِيَ المتلقي المبتغى من فضيلة السفر، وهو الظفر بالحاجات، فالمسافر في تنقله كالماء الجاري الطيب، وإن لم يغترب فمثله كمثل ركود الماء، الذي يتدنس بعدم تجدده، كما يشتمل البيت على التضام التام المنفي بين الفعلين (طاب) و(لم يطب)، وهو تضام تابع للنوع الذي سَيأتي ذكره.

3 – **تضاد السلب**: ويكون بين فعل مثبت وآخر منفي؛ كما ورد في الشطر الثاني من البيت المدرج أعلاه بين (طاب) ولم (يطب)، أو بين فعلين مضارعين، أحدهما فعل مثبت والآخر منفي؛ ومنه قوله:

سـهرت أعـين ونامـت عيـون في أمـور تكـون أو لا تكـون[19]

ففضلاً على ما في البيت من تضاد إيجاب بين فعلي (سهرت) و(نامت)، فيه أيضاً تضاد سلب بين فعلي (تكون) المثبت، و(لا تكون) المنفي.

4 – **التضاد المركب**: ويُقصَد به أن تُصاغ المتضامات في تركيب وصفي (موصوف+ صفة)، أو تركيب عطفي (معطوف عليه+ معطوف)، أو تركيب إضافي (مضاف+ مضاف إليه)، الذي يفيد التخصيص أو التعيين، وقد أكثر الإمام الشافعي من توظيف هذا النوع من المتضامات المتضادة في طيات أبياته؛ كما أورده في قوله:

ومـن لم يـذق مـر التعلـم سـاعة تجـرع ذل الجهـل طـول حياتـه[20]

ففي البيت المتضامان المتضادان (مر التعلم× ذل الجهل)، وقد قولبهما في تركيب إضافي؛ ليظهر حجم المفارقة بين حالي المتعلم والجاهل، وفيه إشارة إلى أن من لم يتعلم من هفواته وعثراته؛ سيظل طيلة عمره يتجرع مرارة الجهل والفشل.

5 – **التضاد المجازي (الصوري)**: ويكون حاصلاً في صورة فنية على سبيل الكناية أو التشبيه أو الاستعارة؛ ومما أورده في صورة التشبيه قوله في إظهار التماثل بين اثنين في الاهتمام من عدمه، حيث يصبح حال الأول كالثاني، حين شبّه (التِّبْر) بالمشبه به (التُّرْب) باستخدام أداة التشبيه (الكاف)، كما ظهر التشبيه بين (العود) و(الحطب)، ولكن إذا عز مطلب التبر فهو كالعود، حيث لكل منهما أهمية؛ حيث قال:

التِبْر كالتُّرْب ملقى في أماكنه والعود في أرضه نوع من الحطب[21].

كما أورد المتضامات المتضادة (علمًا× بجهلي)، و(نقص× زادني) في قالب الاستعارة؛ وذلك في قوله:

كلمـــا أدبنـــي الدهـــر أرانـــي نقـــص عقلـــي
وإذا مـــا ازددت علمًـــا زادنـــي علمًـــا بجهلـــي[22]

ففي البيتين شبه الشافعي الدهر بالمعلم، الذي أحسن تأديبه وتعليمه، فحذف المشبه به، وأبقى أحد لوازمه المنوطة بالتأديب والتعليم، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، ويؤكد الشافعي على حكمة كشف عنها باستخدام المتضامات المتضادة؛ ومفادها: أن المتعلم مهما

بلغ علمه سيكشف له ذلك العلم مدى جهله بعلوم أخرى.

ومما ذكره من المتضامات المتضادة في صورة الكناية قوله:

تموت الأُسْدُ في الغابات جوعًا ولحم الضأن تأكله الكلاب[23]

والمتضامات المتضادة كائنة بين (الأُسْدُ × الكلاب) و(جوعًا× تأكله)، حيث بدت المفارقة جليّة بين حالة (الأُسْدُ) التي يُكنَّى بها عن الأشراف، وحالة (الكلاب) التي يُكنَّى بها عن الوضيعين، ويوضح من خلال سردهما في صورة الكناية؛ ما آل إليه الزمان من تقدير وضع الوضيع، وتحقير شأو الشريف.

6 – **التضاد المعنوي**: تقع بعض المتضامات في حكم التضاد من حيث المعنى لا اللفظ الذي يعاكسه، وهو كثير في مقولات الشافعي، حيث يفهم المغزى المتناظر بما يُستحضَر في الذهن من متلازمة اللفظ في حكم الضدية؛ كما في قوله:

أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قاعه الدرر[24]

والتضاد حاصل بين (فوقه× وبأقصى قاعه)، فالقارئ يستدعي لفظ ظرف المكان (تحته) بدلا من (أقصى قاعه) بوصفه متضادًا لظرف المكان (فوقه)؛ كما يبدو التضام المتضاد في الشاهد الشعري بين (الجيف) ذات الدنو، و(الدرر) ذات السمو، حيث يتحدث لسانه عن حال الوضيع الذي يعلو بدركاته، كما تطفح الجيف على السطح، ولا طائل منها، في حين أن الشريف لا يرقى عن درجاته، فهو كالدُّر الذي يمكث في قعر البحر.

7 – **التضاد غير الصريح**: تتضح المتضامات المتضادة بالتلميح الدلالي لا التصريح المفاهيمي، ويدرك المرء ذلك العقد الحاصل من خلال وظيفيته في السياق، الذي يكون فيه التناظر واقعًا بين شيئين أو أمرين متلازمين؛ ومما أورده في هذا المقام:

من جاء إليك فرُح إليه ومن جفاكَ فُصُد عنه[25]

والتضام المتضاد جاء معقودًا بين الكلمات المتناظرة في الشطرين؛ وهي بين فعلي الشرط (جاء× جفاكَ)، وجوابي الشرط (رح إليه× صد عنه)، والفعلان الأخيران متعديان بحرفي جر، وفيهما الضدية الدلالية حاصلة في الاتجاه، كما أن الترادف اللفظي واقع بين ركني الشرط في الشطر الواحد، حيث وردت المترادفات بين (جاء= رح إليه) و(جفاك= صد عنه)، كما

أن بين الشطرين تقابلاً ملحوظًا ومتوازنًا، وقد أسدى الشافعي من خلال البيت حكمة من مخزون تجاربه الحياتية، تدعو إلى المعاملة بالمِثل؛ ومفادها: من جاءك فأَقبِلْ عليه، ومن تركك فصُدْ عنه، والتنوع الحاصل في استخدام المتضامات المتنوعة لها تأثير في الإيقاع السمعي، والإدراك البصري، والوقع الدلالي، ويمكن قياس ذلك المدى من خلال انعكاساتها على النظم الشعري، وتحقيقها لغرض الحكمة بقالب شائق للقارئ وماتع للمتذوق.

وهذه المتضامات المتضادة -بأنساقها المختلفة وأنماطها- لها جماليات لغوية وفنية، بدت في تجليات مختلفة على المستويات اللغوية المختلفة، التي حصرتها الدراسة في المستويات والوحدات اللغوية الصغرى، وهي المستوى الصوتي والصرفي والمعجمي.

المبحث الثاني: التجليات اللغوية للمتضامات المتضادة

أولاً- التجليات الصوتية للمتضامات المتضادة

إن لأصوات النص الشعري وإيقاعاتها دورًا في استجلاء الدلالات الضمنية فيه، كما تعمل على تكثيف المعاني التي يقصدها الناظم، ويتضمن الجانب الصوتي ما يدخل في سيميائية الأصوات، وتكرارها، والتقطيع الصوتي، كذلك ما يتعلق بموسيقية الشعر الداخلية والخارجية من بحر ووزن وقافية، فكل ذلك يدخل في التشكيل الصوتي، الذي يُسهم في بناء النص الشعري، ويضفي الفارق في التنوع الأسلوبي، ويدعم غرض الحكمة، ويوثق عُراها لتؤتي ثمارها التأثيرية في المتلقي، وهذه الخصائص الصوتية تستدعي إظهار المقاصد الخفية للمتكلم، حتى لو جنح إلى إضمارها.

1- تكرار الأصوات وسيميائيتها

حدد الجاحظ (255هـ) الضابط التعريفي لمصطلح الصوت اللغوي بقوله: "هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف"[26]، وهذا التعريف يدفعنا إلى إخضاع الصوت اللغوي لآلية التحليل، واستشفاف دوره الفاعلي في تشكيل بنية الأبيات الشعرية لدى الإمام الشافعي، واتخاذ الصوت أداة مطواعة للغرض الشعري الموسوم بالحكمة، وذلك من خلال استخدام المتضامات المتضادة.

وقد تكررت بعض الأصوات في بنية النصوص الشعرية لديه بشكل ملحوظ، ووراء ذلك التكرار وظيفة دلالية يتغيّا بيان مرادها، حتى كادت تكون مَزِيَّة صوتية، وخصيصة دلالية على مستوى نظم الأصوات في بنى صرفية وتراكيب نحوية محددة، وستطبق الدراسة هذا التنظير بتحليل أكثر القصائد شهرة لديه، ومطلعها:

دع الأيــام تفعــل مــا تشــاء وطـب نفسًـا إذا حكم القضـاء[27]

حيث وجدنا أكثر الأصوات تواترًا؛ هي الصوائت القصيرة والطويلة مقارنة بالصوامت، وأكثر المدود كانت من نصيب (الياء)، ونلتمس من صفاتها الصوتية ما أضفى الانسيابية الخاصة، والتموجات الإيقاعية على موسيقى الصوت، وذلك في ظل المتناقضات التي نعايشها، حيث إن مقام القصيدة دائرٌ وفق ممازجة صريحة بين التقلبات الحياتية، وطبيعة الحياة تتراوح بين أمل ويأس، وفرح وشدة...إلى آخره، ويمكن بيان أكثر الأصوات تداولاً في النص من خلال الجدولين المدرجين أدناه:

الجدول (1-1): (تواتر الأصوات الصائتة في القصيدة)

الصوت الصائت	تواتره
الفتحة	154
الضمة	52
الكسرة	46
مد بالألف	59
مد بالياء	13
مد بالواو	4
مجموع الصوائت القصيرة= 252	نسبة تداول الصوائت بالنسبة للعدد الإجمالي للأصوات= 46.9٪
مجموع الصوائت الطويلة (المدود)= 76	
المجموع الكلي للأصوات= 699 المجموع الكلي للصوائت= 328	

الجدول (2-1): (تواتر الأصوات الصامتة[28] في القصيدة)

الصوت	عدد التواتر	الصوت	عدد التواتر	الصوت	عدد التواتر	الصوت	عدد التواتر
أ	55	د	12	ض	6	ك	16
ب	9	ذ	4	ط	5	ل	52
ت	19	ر	15	ظ	1	م	16
ث	2	ز	6	ع	12	ن	37
ج	4	س	15	غ	4	هـ	6
ح	7	ش	3	ف	12	و	22
خ	4	ص	1	ق	11	ي	15
المجموع الكلي للأصوات= 699 **مجموع الصوامت**= 371				**نسبة تداول الصوامت بالنسبة للعدد الإجمالي للأصوات** = 53.1 %			

ومن خلال التحليل الصوتي للنص نخرج ببعض الملامح الصوتية، التي وظفها الإمام الشافعي لإظهار تجليات المتضامات المتضادة على غرض الحكمة؛ منها: نسبة تواتر الأصوات بنوعيها الصامتة والصائتة، والتي جاءت متقاربة إلى حد ما، حيث بلغ عدد الصوامت (371) صوتًا؛ أي بنسبة (46.9 %) للعدد الإجمالي للأصوات، أما الصوائت فقد بلغت (328)؛ أي بنسبة (53.1 %)، جاءت الحركات القصيرة منها بعدد (252)، والحركات الطويلة بعدد (76)، والأصوات الصامتة من حيث مخرجها تحدث نتيجة لإغلاق مجرى الهواء أو تضييق له، مما يُحدِث احتكاكًا ملحوظًا، وهو ما أضفى على الدلالة العامة التأكيد على المقول الحكيم؛ من خلال قوة الأصوات في النطق، ووقعها على الأذن، أما الصوائت فلا مخرج لها، لذلك نجد المرونة والامتداد واضحًا عند النطق بها، وبقياس نسبة تواتر الأصوات، ومدى ترددها، وبيان وظيفيتها في الإفصاح الدلالي- نجد أن أكثر الأصوات تواترًا في القصيدة هو (الهمزة) بعدد (55) مرة، وهو صوت حنجري وانفجاري، وقد اتخذه الشافعي في القصيدة حرف الروي، ويحمل من الصفات المتساوقة مع ما يرمي إليه من التحلي بالجلد، وشدة البأس، والامتثال لأحد أركان الإيمان المتعلق بالرضا بالقضاء والقدر؛ ومن الدوال اللغوية المتضمنة صوت الهمزة: (تشاء- القضاء- بقاء- بلاء- العناء- سواء...).

ثم جاء صوت (اللام) بتكرار مقارب للهمزة، حيث وصل إلى (52) مرة، وهو صوت مخرجه من جانبي اللسان، وفي ذلك ما يضفي صفة المرونة، ويدل على التماسك في الوقت ذاته، وصلابة موقفه في مجابهة معترك الحياة، والحزم في مواجهة النوازل؛ ومن الدوال اللغوية المتضمنة صوت اللام: (الأهوال- بلاء- ذلاًّ- جلدًا...).

ثم يأتي تاليًا له صوت (النون)، حيث بلغ تكراره (37) مرة، وهو صوت صامت، مخرجه أنفي شفهي، ومن صفاته أنه مجهور، ومتوسط بين الشدة والرخاوة، والوضوح النسبي في النطق، وهو في ذلك يعبّر عن مشاعر الآلام والأنّات عند الوقوع في الملمّات؛ ومن دواله اللغوية في القصيدة: (حزن- المنايا- عناء...)، كما أظهرت ملامح النون الصوتية ما يُستكنُّ في النفس من شحنات إيمانية خاضعة لأمر الله والتسليم بقضائه.

وجاء صوت (التاء) بتكرار (19) مرة، وهو صوت صامت، يصدر من انطباق طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا، ومن صفاته أنه صوت انفجاري ومهموس، وتُعد التاء صوتًا يعبر عن حالات الحزن والتعب والمعاناة، وهي دلالات مستوحاة من الدوال اللغوية التي تضمنتها؛ منها: (الموت- تجزع- شماتة- التأني- نزلت- تغدر...).

ثم يأتي صوت (الميم) بتكرار (16) مرة، وهو صوت شفهي أنفي مجهور، يقع بين الشدة والرخاوة، ويدل على معاني المرونة والتماسك، ويعكس الحالات الدفينة في النفس، شأنه بذلك شأن صوت النون، واستعان الشافعي ما فيه من شحنات انفعالية في الدعوة لعدم الجزع من الملمات، وتوثيق العرى الإيمانية، والانقطاع عن الاستهواء بأمور الدنيا، والإقبال على الآخرة؛ ومن الدوال اللغوية المتضمنة له: (الأيام- حكم- وشيمتك- شماتة- للظمآن- يدوم- المنايا- الموت...).

وأما أقل الأصوات تواترًا فكان من نصيب صوت (الصاد)، حيث ورد مرة واحدة في القصيدة، ثم صوت (الثاء) الذي ورد مرتين.

وأما الصوائت القصيرة فكانت الفتحة أكثرها تداولاً بعدد (154)، ثم الضمة (52)، ثم الكسرة (46)، أما الصوائت ذات المدود فأكثرها تداولاً جاء مد الألف بعدد (59)، ثم مد الياء (13)، ثم مد الواو (4)، والمدود -باعتبار أن لا مخرج لها- تضفي على النص بشكل عام الليونة المطلوبة في تقبل الواقع، وما تضمره الأيام من شدة ولين، وفرح وحزن، وهي

ما أفادته تلك التموجات الصوتية في المدود بأنواعها، وأضفت إيقاعًا صوتيًّا يدعو إلى تقبل قضاء الله، وحكمه في تصريف الأمور كيفما يشاء، كما تعكس المدود تماسك موقف الشافعي أمام الأهوال، وتمتلك القدرة الاستيعابية على التفريغ الانفعالي، ولما يعتمل في النفس من ضغوط في ظل وسط مليء بالتناقضات.

وفي تواتر هذه الأصوات مجتمعة باختلاف مخارجها وصفاتها ما يضفى تناغمًا انسيابيًّا، وتموجات إيقاعية، وجرسًا موسيقيًّا يكاد يصغي إليه السامع، فيدرك كنهه ومبتغاه، وهو توظيف داعم للغرض الشعري، ومؤكد على المفاهيم الحكيمة في تقبل الواقع ومصاعب الحياة.

2 - دلالة المصطلحات الصوتية فوق الثانوية

للأصوات تأثير في إبراز المعنى وتجليته، وذلك بدءًا من الوقوف على **الوحدات الصوتية الصغرى** Phonemes، التي لها دور رئيس في تغير المعنى، ووصولاً بالوحدات الأكبر من **المقاطع الصوتية** Syllables، وانتهاءً بالفونيمات فوق الثانوية من **نبر** Stress و**تنغيم** Intonation و**وقف** Pausing، "فمن وظائف التنغيم أن يبرز بعض أجزاء وحداته اللغوية المنطوقة ما يجعلها محورية في فهم المعنى المقصود، وأن تتآزر هذه الأجزاء مع التنظيم العروضي Prosodic للنبر والإيقاع مع تميزهما عن الغلالة النغمية"[29]، ولا شك بأن الصوت اللغوي في ظل المنظومة الصوتية حظي بمساحة كبيرة من البحث في ميدان الدراسات اللسانية، كما له أن له دورًا في الإفصاح الدلالي عن مشاعر المرسل والتأثير في المتلقي.

3 - دلالة المقاطع الصوتية ومواضع النبر

المقطع كما عرّفه علماء الصوتيات وحدة صوتية تتكون من صوتين متتابعين أو أكثر، وهو على أنواع مختلفة، حددها علماء الصوتيات في خمسة أنواع شائعة، وهي أشبه ما تكون بمعادلات صوتية تضبط مسألة التقطيع الصوتي على نحو صحيح، وبتحليل عدد كبير من أبيات الإمام الشافعي؛ يتضح أن أكثر المقاطع الصوتية تداولاً هو المقطع القصير المفتوح بحركة قصيرة، ويُرمز له (ص ح)، وبالتطبيق على القصيدة السابقة؛ نجد أن هذا المقطع بلغ عدد مرات استخدامه (168) مرة؛ أي بنسبة تصل إلى النصف (50 %) من مجموع المقاطع فيها، البالغ عددها (335)، يليه المقطع المتوسط المغلق بحركة قصيرة، ويُرمَز له (ص ح

ص)، حيث تكرر (86) مرة، وبنسبة تصل إلى الربع (25 %)، كما جاء المقطع المتوسط المفتوح، ويُرمَز له (ص ح ح) بتكرار وصل إلى (81) مرة، وبنسبة الربع كذلك (24 %) من مجموع المقاطع التي تضمنتها القصيدة.

وقد جمع الإمام الشافعي الأشكال المختلفة للمقاطع، ووظفها بشكل أعان على الإفصاح عن غرض الحكمة من أبياته؛ وعبّر من خلالها عن توجهاته وتطلعاته القيمية حول الشخوص والأشياء والأحداث، وقد راوح في الاستخدام المتباين للمقاطع الصوتية، ما بين قصيرة ومتوسطة، وأما القصيرة فعكس من خلالها الإصرار على المبدأ، وقوة الإرادة والحجة لإقناع المتلقي، ووظفها بشكل متوالٍ وهو ما يعزز ترشيح الاختيار الصائب لدى المتلقي، وذلك عندما يحار بين أمرين. وأما المقاطع المتوسطة الطول، والمفتوحة بحركة طويلة فتحمل شحنة انفعالية وافية لالتماسها، وفيها ما يُضفي على المقاطع الصوتية الإطالة في استمرار مجرى الهواء؛ وهو ما يبعث حالة من التوازن النفسي في تقبل الواقع. وأما المقاطع المتوسطة الطول، والمغلقة بحركة قصيرة فرشحّها في التوظيف الدلالي الموحي للتوازن النفسي، وتغلبّه على تقلبات الأمور، ونوائب الدهر وحِدْثانه، والنأي عن الجزع من الأهوال، وتقبل ما يقدره الله من مآل، وقد أحسن استثمار الطاقة الصوتية في بيان مقصده، كما وَطَدَ علاقة الصوت بالمعنى، وما به من قيمة إيحائية.

4 - الإيقاع الداخلي والخارجي للمتضادات

اقتران النظم الشعري بالإيقاع "لا يجعله منجزًا سابقًا على النص، بل يجعله معطى تأويليًّا للنص، يمكن من خلاله إدراك البناء العروضي والتشكيلات الصوتية النوعية والتقنيات البلاغية كالجناس والتكرار... إلخ"[30]، ولنظم المتضادات المتضادة إيقاع على مستويين؛ أولهما **الإيقاع** الداخلي الذي ينبعث من جرس الكلمة، وطبيعة أصواتها، وبنيتها الصرفية، وتشكل مجتمعة الإيقاع الهامس بالمعنى المراد، وكذلك يظهر الإيقاع الداخلي في تكرارية بعض الأصوات على نطاق الكلمة، أو تكرار الكلمات على نطاق الجملة، وهذا التكرار ليس من الحشو الذي لا طائل منه، أو هو إطناب ممل أو مخل باستقامة البيت؛ إنما له دور ريادي في استكناه الغايات الدلالية، وإدراك مقاصد الشاعر، ويظهر ذلك الجرس الداخلي في انسجام المتضادات على النحو التركيبي.

ويتجلى الإيقاع الخارجي في جرس الأصوات المتناظرة، وذلك على مستوى إفراد المتضادات أو تركيبها، أو من حيث التوازن الصوتي بين المتضامات عند الاستفتاح بأحدهما في الصدر أو العجز، أو في اختتامهما، أو في تشابه حرف الروي للأبيات المتناظرة، أو في تكرارية بعض المتضامات بأنواعها المختلفة اسمًا أو فعلاً أو حرفًا، أو في تكرار الفعل ونفيه في آن واحد، كذلك يظهر الإيقاع المتوازن في الأبنية الصرفية للمتضامات المتضادة، وما تضفيه تلك البنى من معنى، كما يبدو الإيقاع في تراصف المفردات في التركيب النحوي، وتوازن الأركان في التراكيب المتناظرة.

كما يبدو الإيقاع الخارجي منبعث من الوزن الشعري للنص، الذي يقوم على بناء نظمي إيقاعي، وقد أجاد الإمام الشافعي مسألة التنوع في الأوزان الشعرية المعبرة عن مقاصده الشعرية، واتضح في معظم منظوماته الشعرية غلبة الإيقاع السلس في تذوق الشعر والإصغاء إليه؛ ومثاله أبيات القصيدة التي قمنا بتحليلها صوتيًا، والتي أُدرِجت معظم أبياتها كمضرب للمثل، وهي على البحر الوافر؛ حيث يقول في مطلعها:

دع الأيـام تفعـل مـا تشـاء — وطـب نفسًـا إذا حكم القضـاء[31]

/ / 0/ 0/ 0/ / 0/ / 0/ / 0 — / / 0/ 0/ 0/ / 0/ / 0/ / 0

مفاعلتـن مفاعلتـن فعولـن — مفاعلتـن مفاعلتـن فعـولـن

وهذا البحر سهل الصياغة، ومتوازن الإيقاع الصوتي، وقادر على حمل المعنى وإيصاله للمتلقي بكل يسر وسلاسة.

ثانيًا- التجليات الصرفية للمتضامات المتضادة

للأبنية الصرفية دلالات خاصة، والزيادة الحاصلة في أبنيتها زيادة على معانيها، ويمكن إيضاح أثر صوغ المتضامات المتضادة على لغة الحكمة، من خلال الركائز البنيوية الآتية:

1 - قولبة المتضامات في الأوزان الصرفية

تظهر التجليات الصرفية في المتضامات المتضادة من خلال صقلها في قوالب معينة، وهي ما أكسبتها توازنًا وانسجامًا في تراصفها، وأظهرت الإيقاع الموسيقي المتناغم لهذا التماثل الصياغي؛ كما في قوله:

أما ترى الأُسْدَ تُخْشَى وهي صامتة والكلب يُخْسَى –لعمري- وهو نباح[32]

انطوى البيت على عدد من المتضامات المتضادة بين الاسمين (الأُسْدَ× الكلب)، والفعلين (تُخشَى× يُخسَى)، والضميرين (هي× هو)، والحالين (صامتة× نَبّاحُ)، وكذلك يمكن التماس التوازن الصوتي والصرفي والمعجمي والتركيبي بين المتضامات، التي يتكون منها الشطر الأول، وما يناظره في الشطر الثاني؛ ليشير إلى حكمة مفادها: إن الصمت يكسب صاحبه المهابة، أما الأحمق فصوته كنباح الكلب، الذي يهان به ولا يرفعه.

وتعددت المتضامات المتضادة في صيغ المشتقات؛ ومنها ما جاء بصيغة اسم الفاعل، الذي أكثر الشافعي توظيفه من الفعل الثلاثي المجرد اللازم والمتعدي، والأخير هو الأغلب في الاستخدام، وأما المتضامات المتضادة التي جاءت من الفعل المزيد بحرف واحد فهي الأكثر استعمالا، وأقلها ما جاء في صيغة المزيد بثلاثة حروف، وقد خلا الديوان من استعماله للفعل الرباعي سواء المجرد منه أو المزيد، كما جاءت بعض المتضامات في صيغ اسم المفعول، وصيغ المبالغة؛ وأما ما جاء في صيغة اسم الفاعل فقوله:

فإن تدنُ مني تَدْنُ منك مودتي وإن تنأَ عني تلقني عنك نائيًا[33]

عقد الشافعي المتضامات المتضادة في أسلوب شرطي، يقوم على تماثل فعل واحد مكرر في صدر البيت (تدنُ× تدنُ)، وأما التكرار المعنوي مع الاختلاف الصياغي فبدا بين الفعل (تنأَ) واسم الفاعل (نائيًا) في العجز، وقد صيغ الشطران بأسلوب شرطي، يمثل التقابل بين حالين متناقضين؛ ومفادهما: إن تحقق قربك ومودتك لي سيكون لك المثل. وقد تنوعت المتضامات المتضادة بصيغة الفعلين (تدنُ× تنأَ)، وحرفي الجر المقترنين بضميري المتكلم (مني× عني)، وضميري المخاطب (منك× عنك)، وجاء أحد المتضامات المتضادة بصيغة اسم الفاعل (نائيًا) متضادًا مع صيغة الفعل (تدنو).

كما ذكر في بيت آخر له المتضامين المتضادين (يدني× شاسع)، فالأول بصيغة الفعل المضارع، والثاني بصيغة اسم الفاعل من الفعل الثلاثي (شسع)؛ ومعناه اتّسَعَ وبَعُدَ، كما أورد المتضامين المتضادين (يفتح) بصيغة الفعل المضارع، و(مغلق) بصيغة اسم المفعول من الفعل غير الثلاثي (أَغْلَقَ)؛ عندما أشار إلى حكمة تنص على أن العمل بجدية يقرب كل بعيد؛ وذلك في قوله:

الجِـد يـدني كل أمـر شاسـع والجـد يفتـح كل بـاب مُغْلَـق[34]

وأما ما ذكره من المتضامات المتضادة في صيغة المبالغة (فعيل) قوله (صديق) ضد (عدو) في البيت الآتي:

صديـق ليـس ينفـع يـوم بـؤس قريـب مـن عـدو في القيـاس[35]

فالأول من المتضامين كلمة (صديق)، الذي جاء موصوفًا بصيغة اسم الفاعل (قريب)، والثاني (عدو) وكلاهما أكسبا البيت إيقاعًا صوتيًّا، وتوازنًا في أداء الوظيفة الصرفية ذاتها، ليظهر لنا الحكمة، والعبرة في أن الصديق الذي لا ينفع صاحبه وقت الشدة مماثل للعدو في هذا المقام، وفي قولبة المتضامين بصيغة المبالغة ما يدلّ على كثرة ممارسة الحدث في المتضامات.

2 - التنوع الصياغي في عرض المتضامات

عرض الشافعي المتضامات المتضادة بأسلوب فيه من التحول اللافت، والتنوع الماتع، وفيهما ما يشد الانتباه إلى التماثل الصوتي، والتغاير النوعي الحاصل بين صيغ الأسماء والأفعال؛ كما في تساوق الأفعال الماضية الدالة على انقضاء الحدث، والأسماء الدالة على ثبات المعنى ولزومه بعدم اقترانها بزمن؛ ومنه قوله:

أَمَـتُّ مطامعـي فَأَرَحْـتُ نفـسي فـإن النفـس مـا طمِعـت تهـون
وأحييـت القنـوع وكان ميتًـا ففـي إحيائـه عِـرْض مصـون[36]

والتضام المتضاد حاصل بين (أمت× وأحييت) و(ميتًا× إحيائه)، حيث تكررا بصيغتي الفعل والاسم، وفي التكرار تأكيد على الحكمة المسداة، التي تؤكد مقولة: "إن القناعة كنز لا يفنى"؛ لذلك أماط اللثام عن بواعث الرضا، وأحياها في نفسه، وروَّض النفس على هذا المبدأ الإيجابي؛ وذلك حين قضى على منابع الطمع، وأحيا مراتع الرضا في نفسه.

3 - التوازن الصرفي في صيغ المحسنات البديعية

يُعرف ابن خلدون علم البديع بأنه: "النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق، إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك"[37]؛ ومن هذا التعريف نخرج بأن المحسنات البديعية تحسن أوجه الكلام اللفظية

والمعنوية، أما المعنوية فتحسن الجانب الدلالي من النصوص؛ نحو الطباق والمقابلة، وهما يندرجان في حكم الضدية القائمة على حد صياغة اللفظ أو تركيب الجملة، وأما اللفظية فتُحسِّن الجانب الظاهري للنصوص؛ نحو الجناس والسجع؛ ومما ورد من أبيات الشافعي المتضمنة هذا المحسن البديعي قوله:

الدهـر يومـان ذا أمـن وذا خطـر والعيـش عيشـان ذا صفـو وذا كـدر[38]

وبين الكلمتين المختوم بهما الصدر والعجز سجع مرصع من صيغتهما، حيث اتفقت الكلمتان (خطر) و(كدر) في التقفية بحرف الروي (الراء)، كما تشابهتا بالوزن الصرفي، مما أضفى على الشطرين تناظرًا إيقاعيًّا مسموعًا. والكلام الموزون والمقفى في الشعر والنثر يرسّخ مفهوم الحكمة، ويسهّل حفظها واستدعاءها عند التداول اللغوي بحسب المواقف الكلامية.

والمحسنات البديعية تضفي على النص الشعري تجانسًا صوتيًا، وقد احتوى ديوان الإمام الشافعي على فنون بلاغية مختلفة من بيان وبديع ومعانٍ، وهي تُجلِّي قدرته البلاغية في التأليف المطابق لمقتضى الحال، وقد وظف هذا الفن في سياق سرده للمتضامات المتضادة.

ثالثًا- التجليات المعجمية للمتضامات المتضادة

توظيف المفردات في تراكيب متلازمة على نحو محدد، وكيفية ائتلافها في العلاقة الدلالية الضدية، فيه ما يعمل على تجلية مقصد المتكلم. وعلى مستوى التحليل المعجمي تتضح بعض الملامح الخادمة للغة الحكمة؛ نذكر منها ما يأتي:

1 - العقد المفاهيمي بين الوحدات المعجمية

التضام -كما اتضح لنا- صورة من صور السبك النصي، يتأتّى من خلاله إيجاد علائق دلالية قائمة بين وحدتين معجميتين، أو تركيبين نحويين منسجمين في علاقة معقودة على "الترابط المعتاد لكلمة ما في لغة ما بكلمات أخرى معينة في جمل تلك اللغة"[39]، ويُقصَد بالكلمات المعينة تلك الكلمات التي تشترك مع الأخرى برابطة ما؛ وعليه فإن وجود إحداهما يستدعي ذكر الأخرى، لذلك يُطلَق على هذه العلاقة بالمصاحبة المعجمية، التي تُحدث قوة سابكة لمعاني الكلمات المتجاورة؛ ومن طرائقها التضام والمصاحبة المتعلقة بالتضاد.

2 - الانتماء للحقل المعجمي الواحد

من خصائص الصنعة اللفظية في المتضامات المتضادة لدى الإمام الشافعي التناسب المعنوي بينها، وانتمائها إلى حقل معجمي مشترك، ويظهر ذلك جليًّا في المتضامات ذات النطاق التقابلي الواحد؛ وفيما أورده الشافعي تأكيدًا على هذه الحقيقة قوله:

والأُسْدَ لولا فراق الأرض ما افترست والسَّهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة لملّها الناس من عجم ومن عرب[40]

يشير الشافعي إلى أن الأُسْدَ لو لم تفارق عرينها بحثًا عن الفرائس؛ لظلّت جائعة، ثم ماتت، ولكنها لو فارقت الغاب، وبحثت عنها لعاشت، وأن السهم لولا انطلاقه ما أصاب، كذلك الشمس لو ظلت مكانها لكرهها الناس كافة من العرب والعجم، فقد جمع بين الأبيات المتتالية والمتوازية في الوقت ذاته عددًا من المتضامات، التي تندرج في تآلف نسبي لحقل معجمي واحد؛ ففي البيت الأول (الأُسْدَ+ والأرض+ والافتراس)، و(السهم+ والقوس+ والإصابة)، وأما البيت الثاني فقد وردت فيه متجانسات معجمية تدعم المقابلات لها في البيت الأول؛ وهي: (الشمس+ والفلك+ والحركة الدائمة)، وكذلك العلاقة بين (الناس+ العجم+ العرب)، وكل هذه المجاميع من الحقول المعجمية جاءت في سياق عرض المتضامين المتضادين (عجم× وعرب)، وكلاهما اسم جنس ينتميان إلى اللغات الإنسانية، كما ورد هذا الائتلاف المعجمي في قوله:

قضاة الدهر قد ضلوا فقد بانت خسارتهم
فباعوا الدين بالدنيا فما ربحت تجارتهم[41]

ضم البيتان متضامين متضادين (خسارتهم× ربحت)، في سياق تدور كلماته حول محور التجارة؛ وهي: (التجارة+ البيع+ الربح+ الخسارة)، وهذا ما يؤكد حقيقة التساوق السياقي والنسبة المعقودة بين المتضامات المتضادة في سياق تكاملي.

3 - تفصيل المجمل وتخصيص العام

في هذه الصفة المائزة للغة الحكمة تصريح دلالي لإزالة الإيهام، وتوضيح للموغل في الإبهام، وتمييز للمتشابهات أو المتباينات؛ ومن أقوال الشافعي في ذكر المتعدد من المجملات:

الدهـر يومـان: ذا أمـن وذا خطـر والعيـش عيشـان: ذا صفـو وذا كدر[42]

ويمكن تصور العقد المفاهيمي بين المجملات والمفصلات، وذلك بإعادة بناء توزيع المفردات بهيكل تنظيمي على النحو الآتي:

الدهر يومان: (المجمل) ← ذا أمن (المخصص1) – ذا خطر (المخصص2) – (المجمل)
والعيش عيشان: (المجمل) ← ذا صفو (المخصص1)
والعيش عيشان: (المجمل) ← ذا كدر (المخصص2)

وذكر التفصيل بعد المجمل في لغة الحكمة؛ فيه ما يؤكد الأمور المقررة إدراكًا لا سلوكًا، كما أن تجليات هذه الخصيصة ترسخ المفاهيم المجردة في العقل، وتَعقِد الوشيجة بين حيثيات الكل والجزء، والعام والخاص، والمجمل والمفصل، وفي هذا النهج تأكيد على طابع الحكمة في سرد المتضامات المتضادة بتسلسل ودَرْج منطقي، وفيه إيجاد لعلائق القربى بين المتباينات اللفظية والمفارقات المعنوية.

4 - حسن التقسيم اللفظي في السرد التضامي

ذكر السكاكي في بيان مصطلح التقسيم "أن تذكر شيئًا ذا جزأين أو أكثر ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك"[43]، وفي هذا المقام ذكر الشافعي ما يتعلق بجودة التقسيم بين الشيء ونقيضه:

والنـاس يجمعهـم شـمل، وبينهـم في العقل فَرْقٌ وفي الآدابِ والحسـبِ[44]

فالتضام المتضاد واقع بين مفهومي الجمع والفرق؛ أي أن الناس مجتمعون ومتفرقون، وأما تجمعهم فيكون في الجنس والشمل، وأما تفرقهم فيكون في العقل والأدب والحسب، وجمالية التقسيم بين المتضامات ملموسة في عقد العلاقة الوثيقة بين أمرين أو شيئين، قد يبدوان مختلفين شكليًّا في الحُكم، ثم يتم ذكر المتعلقات المختصة على انفراد، بحيث لا تحيد عن الحكم العام الذي اجتمعت فيه.

5 - التجانس المعنوي والجناس اللفظي

من خلال استقراء البحث لمواضع المتضامات المتضادة؛ وقف على حقيقة المناسبة بينها، سواء أكانت تجانسًا بين مفاهيمها المعنوية، أم جناسًا بين قوالبها اللفظية، وكلاهما مأخوذان من مادة (جنس)، والجناس لغة من جذر (جنس)، و"التجانس من أصل الوضع

هو التماثل والتشابه، يُقال جانس الشيء إذا ماثله وشابهه"[45]، فالتعريف معقود على المماثلة والمشابهة، فالجناس مأخوذ من التجانس والتماثل اللفظي الحاصل بين المفردات، وتشابهها في تأليف حروفها، وكثير من المتضامات المتضادة التي أوردها الشافعي في ديوانه لا تخلو من هذا المحسن البديعي؛ ومن ذلك قوله:

وأرض الله واســـعـــة ولكـــن إذا نـزل القضا ضـاق الفضـاء[46]

يتحدث في هذا البيت أن الموت حاصل بمكانه وزمانه المقدر مهما اتسعت الأرض، والتضام المتضاد حاصل بين (واسعة× وضاق)، وقد ورد اللفظان في بيت وُظِّف في سياقهما الجناس (القضا والفضا)، وهو جناس غير تام لاختلافهما في نوع الحرف ومخرجه، وكذلك ورد هذا النوع من الجناس في قوله:

والتـبر كالـترب ملقـى في أماكنـه والعـود في أرضـه نـوع من الحطـب[47]

ويشير الشافعي فيه إلى فائدة التغرب، فالشيء إذا بقى مكانه تقل قيمته، كما يتساوى الذهب بالتراب حين يلقى في مكانه، أما إن عز مطلبه فسيرتفع ثمنه، والمتضامات المتضادة في البيت كائنة بين (التبر والترب) و(العود والحطب)، وبين المتضامين الأوليين جناس غير تام لاختلاف ترتيب حروفهما.

وللجناس جماليات في التوظيف الدلالي بتقريبه المعنى المراد، والتأكيده، وله جرس موسيقي يستدعي لفت الانتباه إلى المتناظرات والمتشابهات والأضداد، كما أن له خاصية تأثيرية في تثبيت الحكمة المسداة في الأذهان وترسيخها، وسهولة حفظها واستدعائها عند الاستشهاد بها بوصفها مقالاً يتوافق مع المقام.

المبحث الثالث: جماليات التجليات اللغوية على لغة الحكمة

من خلال استعراض التجليات السابقة للمستويات اللغوية في صوغ المتضامات المتضادة؛ نخرج ببيان جمالياتها على لغة الحكمة لدى الشافعي؛ ومنها:

أولاً- الوضوح والبعد عن التقعر الأسلوبي

امتاز شعر الشافعي بالسلاسة النسبية في إيضاح مقاصده، بحيث أتاح للمتلقي مسألة الاختيار الصحيح، والديدن القويم عند الوقوع بين جملة الأضداد والمتناقضات، وذلك

عن إرادة صائبة باختيار الإيجابي منها، واجتناب مآل الاختيار السلبي، وكان في عرض المتضامات المتضادة واضحًا في عرض الرؤى الفكرية، وبعيدًا عن التقعر والالتواء الأسلوبي الذي يُعرَف بمصطلح "المعاظلة".

ثانيًا- توظيف الأصوات الموحية للمعنى الدقيق

وتظهر باعتماد خصائص الأصوات بمخارجها وصفاتها البينية، والمراوحة في مسألة الانتقائية، بما يدرأ عن القارئ الرتابة في التذوق الشعري، والملل في الوقع السمعي، وجاءت الأصوات داعمة لمستويات اللغة في تكثيف المعنى، وموحية لمقاصد المتكلم، وخُصَّت بعض الأصوات بالسمة التكرارية، مما يحمّلها شحنات انفعالية إضافية، تُشخّص ما يعتري الإنسان من تردد عند الاختيار بين المتشابهات أو المتناقضات، والدقة في اختيار الأصوات الموحية للمعنى صنعت الفارق الأسلوبي، ومكنته من امتلاك ناصية الشعر وأدواته، كما تعاضدت المستويات اللغوية لديه في بنائية النص الشعري، وأوثقت عُرَى التجانس بين أركانه، فجاء كل ركن نتيجة لما قبله، وممهدًا لما بعده.

ثالثًا- إقامة الحجة العقلية في الاختيار بين المتضامات

مقارعة الحجة بالحجة، أو إقامتها على منكرها تُعَد من الأساليب اللازمة للغرض الموسوم بالحكمة، وهو دليل منطقي مستنبط من علم الكلام، الذي يلجأ إلى الإثبات بالبرهان، حتى يُعزز مسألة الاختيار الصائب بين المتضامات المتضادة.

ومما أورده الشافعي في هذا المقام قوله:

قالوا: سَكَتَّ وقد خوصمت قلت لهم ... إن الجواب لباب الشر مفتاح
والصمت عن جاهل أو أحمق شرف ... وفيه أيضاً لصون العرض إصلاح
أما ترى الأُسْدَ تُخشَى وهي صامتة ... والكلب يُخسَى لعمري وهو نَبّاحُ[48]

فالأبيات المذكورة أعلاه قائمة على مذهب كلامي بحت، فمن ذا الذي يلومه في عدم الرد على الأحمق، وذلك عند اتباعه وجهة نظر حكيمة، واستناده على الأدلة العقلية، التي استمدها من الواقع المعاش، فمجابهة الحمقى تكون بالترفع عنهم، وعدم الاكتراث لهم أو

الرد عليهم؛ وأردف هذه الحقيقة بالحجة المنطقية، التي تنص على أن الصمت عند الأسود جالب للهيبة والوقار، أما الكلاب فلا يصاحبه إلا الرمي بالحجارة.

رابعًا- تبادل المقامات والأدوار بين المتضامات

ونقصد به استجداء المقابل، واستدعاء البديل بين الأدوار الكلامية، وقياس مدى التباين المتحقَق بين المتضامات إن زُحزِحَت عن مقاماتها، وتبدلت أحوالها؛ ومثاله قول الشافعي:

العبـــــد حـــــرٌ إن قـنـــــع والحـــــر عبـــــدٌ إن طمـــع
فاقنـــــع ولا تقنـــع فـــــلا شيء يشـــين ســـوى الطمـــع[49]

فقد قارن الشافعي بين حال العبد الذي سيؤول إلى حال الحر إن قنع، وحال العبد الذي سيقبع في العبودية إن استحوذ عليه الطمع، والقناعة هي الميزان الذي يرجّح كفة الحرية والرضا على كفة الطمع، الذي يبخس قيمة الحر، ويَحُطُّ من شأنه، ويكبله بقيود العبودية.

خامسًا- التكرار اللفظي أو المعنوي للمفردات

في مسألة التكرار ترسيخ للمدركات، وتأكيد للمقولات، وتجلية للمبهمات، وتذكير للمنسيات، ونضرب مثلاً من أبيات الشافعي التي انطوت على التكرار اللفظي في استخدامه لفعل جاء بصيغتي المضارع والماضي؛ وقد تكرر ثلاث مرات في بيت واحد:

يزيـــد ســـفاهة فأزيـــد حلـــمًا كعـــود زاده الإحـــراق طيبـــا[50]

فالتكرار أكد الحكمة التي أراد بيانها، وقربها بصورة لافتة، وذلك لعقد المقارنة بين المتضامات المتضادة وهي: (يزيد **سفاهة**× فأزيد **حلمًا**) و(**الإحراق**× **طيبًا**)، وفي هذا البيت أشار إلى أنه كلما زاد السفيه في سفاهته قابله بزيادة حلمه؛ كما هو حال العود الذي كلما زاد في احتراقه زاد طيبًا، وتوارد الألفاظ على هذا النحو التكراري؛ فيه ما يؤكد أبجديات لغة الحكمة، التي لا تترك مجالاً للمَظِنة والشك، وتأكيد مقول القول.

إن استعمال المتضامات المتضادة، وما أظهرته تجلياتها على لغة الحكمة عكس عناية الإمام الشافعي بالنظم الشعري المؤثر، وأبرز قدرته الفائقة في الصنعة الشعرية، وأكد امتلاكه الأدوات اللغوية الضابطة لانسيابية الشعر المتزن، وأظهر مدى تمكنه من استغلال المساحة

الشعرية لكل بيت، وتوظيفه للعبارات التناغمية للمعنى، التي شكّلت منظومته الشعرية بدءًا من الوحدات الصغرى في المستوى الصوتي، وانتهاءً بالوحدات الكبرى المتمثلة في المستوى السياقي، وتم ذلك الانسجام الداخلي مع القيمة الوزنية للبيت الشعري.

الخاتمة

باستقرائنا لديوان الإمام الشافعي يتضح لنا بعض الملامح الأسلوبية المتفردة، التي تؤطر الصورة الشعرية لديه بهالة من التكامل اللغوي، وهذه الملامح تؤكد مجتمعة براعته وذائقته في الإنتاج الشعري، وتبرز عمق رؤاه الفكرية حول الأشياء والأشخاص والأمور الحياتية والمصيرية، ويُستَرشَد بها بوصفها خبرات وتجارب حياتية، تعين المرء على تحديد جادة الصواب في تقييم الأمور، وذلك من منظور حكيم يحقق التوازن في مسألة الاختيار بين الأضداد والمتناقضات والمتقابلات، وقد ترك في موروثه الشعري بصمات لا تكاد تنمحي، وخطوات تُتَقَفَّى على آثارها في النظم الشعري والبناء الأسلوبي، وخبرات يُستفاد منها عند متذوقي الشعر الحكيم، حتى بدت أبياته في جلّها مضربًا للمثل ومدرجًا للحِكَم، وقد خرجت الدراسة ببعض النتائج؛ منها:

1 - أحدث التضام بين المتضادات سبكًا رصينًا للنص الشعري؛ وذلك من خلال علاقة نسقية خاصة، وتوليفة أسلوبية متفردة، جمعت بين النقيضين في الشيء الواحد أو المتعدد، أو من خلال تحقق الشيء بموازنته بنقيضه، أو بتشبيه الشيء بضده، وقد تجلى التماثل بين المتناظرات المتضادة في أنماط مختلفة، اندرجت في حكم التضاد الموجب أو السالب أو البائن أو المركب أو المجازي.

2 - تحقق مفهوم الصنعة الشعرية لدى الإمام الشافعي في عقده العلاقة بين الثنائيات الضدية، وفي استغلاله الناتج الدلالي من تعاضد الوحدات اللغوية الصغرى المؤسسة للبيت الشعري بوجه خاص، والنص ككل، وذلك بما تحمله الأصوات -وفقًا لمخارجها وصفاتها- من ملامح تمييزية للمعنى المراد، وما تدل عليه المصطلحات فوق الثانوية (المقطع والنبر والتنغيم) من معنى معزز لمقصد المتكلم ورادف له، وما ينبعث من تراصف المفردات من موسيقى شعرية داخلية وخارجية خادمة للدلالة العامة.

3 - مجيء المتضامات المتضادة في قوالب صرفية متباينة أضفى دلالة الثبات أو التغير في تلازم المتضادات أو تنافرها بحسب الموقف الكلامى وسياق الحال، كما أوثق عُرى المناسبة والمصاحبة بين الدوال والمدلولات، التي تقع في حكم الضدية القائم على حد صياغة اللفظ أو تركيب الجملة، واستغلاله المساحة الشعرية بالكلام الموزون والمقفى؛ من خلال الصيغ ذات الإيقاع والتأثير.

4 - يتضح في المفردات الواقعة في سياق الضدية أنها تنتمي إلى حقول دلالية واحدة؛ لتعزز العقد المفاهيمي بين المتنافرات في نطاق تقابلي واحد، وقد عمد إلى تجلية اللبس والإيهام الذي قد يحصل لدى المتلقي بتفصيله للمجملات وتخصيصه للعموميات، وأظهر مهاراته الشعرية في حسن التقسيم للسرد التضامي بين المتناظرات الضدية، وانتقى من المتضادات ما يبدو بينها تجانس معنوي وجناس لفظي.

5 – لغة الحكمة ظاهرة امتاز بها الإمام الشافعي عن منافسي عصره، ولعل الظروف والبيئة وكثرة التنقل هي التي أوثقت عُرَى الحكمة لديه، وذلك من رؤى موضوعية في الشئون الحياتية. وقد تعددت مشاربه من جميع العلوم والمعارف، حتى أصبح نتاجه الديني واللغوي والفكري منهج حياة يسترشد به المهتدون، وتقوّم مسار الضالين، وتعد مقولاته الشعرية معينًا لا ينضب للراغب بالاستزادة المعرفية في أمور الدين والدنيا.

6 - بعقد الصلة بين الشيء وما يناقضه –لا ما يناظره– أوجد الشافعي لنفسه نوعًا متفردًا في التشكيل الصياغي بائتلاف المتنافرات، والقارئ لمقولاته سيكون على بصيرة بمآل الأمور ومصائر الأحوال، فيمهّد له أن يدرك الأفضل ويترك الأسوأ، ويلزم الصالح ويتجنب الطالح، وهذه الظاهرة اللغوية والفنية تكشف عن فكر يقظ في قياس الأمور الحياتية، فهو يعي ما يود إيصاله للمتلقي؛ لذا يؤطر الصورة التي يريد من القارئ أن يتصورها، فهو ينظر للحياة من منظور مختلف الزوايا، فيتيح لكل امرئ تصوره الخاص بالنظر من زاوية له، وقد لا تكون الصورة دقيقة؛ لو أُخِذَت بغير مقاييسها الصحيحة.

7 - أسس الإمام الشافعي مرجعية مركزية لمقومات الطرح الحكيم في النظم الشعري، الذي يتسم ببعض الخصائص المائزة، ولم يكتنف أسلوبه شيء من الإيغال في الإبهام

أو الغموض، وقد عملت دقته في اختيار الوحدات الصوتية، والبنى الصرفية، والألفاظ اللغوية على تكثيف الدلالة العامة، كما صنع التضام المتضاد الفارق الدلالي والأسلوبي، الذي أغنى عن اتخاذ أية وسيلة لغوية أخرى لتحقيق ذلك المأرب، وهو ما جعله يمتلك ناصية النظم الشعري، وكشفت عن حذاقته الأسلوبية والفنية.

8 – توظيف المتضامات المتضادة في الأطروحات المفاهيمية لم يكن اعتباطًا أو عارضًا، بل هو قصد حاصل ومنبعث من مقصد الشاعر، يتغيّا من خلالها الكشف عما يجول في نفسه، وهو ما شكَّلَ أبرز مزيّة أسلوبية في نصوصه الشعرية، أسهمت في تجلية المضامين الحالية والرؤى التطلعية، كما أظهرت عنايته الفائقة بانتقاء الوحدات الصغرى الموحية لتكوين بنائه الشعري.

9 – يُعد استخدام المتضامات المتضادة في الشعر العربي أداة فنية للجمع بين المتناقضات والمؤتلفات في آن واحد، وقد أضفت ديناميكية خاصة تموج في بحور النص الشعري، وتُعَد هذه الظاهرة مرتكزًا يُشاد عليه، ويرصدها كل قارئ لمقولاته الشعرية، ويتفاعل مع حركاتها الانسيابية في ظل المنظومة الشعرية المتكاملة.

الهوامش والمراجع

(1) هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المطلبي القريشي (150 – 204هـ)، ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي، ومؤسس أصول علم الفقه، وإمام علمي التفسير والحديث، وقد عمل قاضيًا معروفًا بالعدل والذكاء، وكان فقيهًا يُعتد بآرائه الفقهية، وبليغًا يُحتَج بلغته الشعرية.
انظر في الترجمة له: ياقوت الحموي: **معجم الأدباء– إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993، ص2393 – 2418.

(2) الموقع الإلكتروني: https://oarep.usim.edu.my/jspui/handle/123456789/8845 .

(3) لسان العرب، (ضمم)، (بتصرف)، مج12، 357.

(4) السعيد، حمودي: "الانسجام والاتساق النصي المفهوم والأشكال"، (بتصرف)، **مجلة الأثر**، جامعة بالمسيلة، عدد خاص، 2012م، ص107.

(5) Wu, Ying: "The Application of Chomsky's Syntanctic Theory", **Journal of Languag teaching and Research**, March 2011, Vol.2, No.2, Academy Publisher Manufactured in Finland, PP.396-399. ISSN 1798-4769.

(6) Andarwatii: "Chomsky Linuistics School", **Ulul Albab- Journal studi islam**, Vol.5, No.1, 2004. P62. P_ISSN: 1858- 4349. E- ISSN: 2442- 5249.

(7) الديحاني، أمينة سالم: "دور المحققين في إعادة بناء السياق الصوتي تحقيق بشار بن برد أنموذجًا"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت، المجلد 34، العدد 39، 2021، ص 161.

(8) ابن حجة الحموي، الشيخ تقي الدين أبو بكر بن علي: **خزانة الأدب وغاية الأرب**، تحقيق: عصام شعيتو، مج1، بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2004، ص156.

(9) خطابي، محمد: **لسانيات النص- مدخل إلى انسجام الخطاب**، ط1، (بتصرف)، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1991، ص25.

(10) الإمام الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس: **ديوان الإمام الشافعي المسمى الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس**، إعداد وتعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، القاهرة: مكتبة ابن سينا، ص41.

(11) ديوان الإمام الشافعي، ص10.

(12) ديوان الإمام الشافعي، ص47.

(13) ديوان الإمام الشافعي، ص20.

(14) ديوان الإمام الشافعي، ص26.

(15) ديوان الإمام الشافعي، ص10.

(16) ديوان الإمام الشافعي، ص41.

(17) ديوان الإمام الشافعي، ص21.

(18) ديوان الإمام الشافعي، ص26.

(19) ديوان الإمام الشافعي، ص147.

(20) ديوان الإمام الشافعي، ص33.

(21) ديوان الإمام الشافعي، ص26.

(22) ديوان الإمام الشافعي، ص117.

(23) ديوان الإمام الشافعي، ص15.

(24) ديوان الإمام الشافعي، ص72.

(25) ديوان الإمام الشافعي، ص146.

(26) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني: **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، ج1، ط7، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1998، ص79.

(27) ديوان الإمام الشافعي، ص10.

(28) تم اعتماد الشدة (ّ) بوصفهما صوتين صامتين (صوت مضعف)، وأدرجت ألف (أل) التعريف ضمن الهمزة، كذلك المدة (~) باعتبارها همزة مكررة، وشمل صوت النون (نون التنوين)

بأنواعه المختلفة في التقطيع الصوتي، ولم تُدرَج المدود ضمن الحروف الصامتة؛ أي أن المد بالواو لا يقابل الصوت الصامت (الواو)، ولا المد بالياء ضمن صوت الياء الصامتة، ولا المد بالألف ضمن الألف الصامتة.

(29) الضالع، محمد صالح: "قضايا أساسية في ظاهرة التنغيم في اللغة العربية"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت، المجلد17، العدد 67، 1999، ص30.

(30) عيد، محمد عبد الباسط: "مستويات الحجاج في النص الشعري: قراءة في دالية عمر بن أبي ربيعة"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت، المجلد 34، العدد135، 2016، ص181.

(31) ديوان الإمام الشافعي، ص10.

(32) ديوان الإمام الشافعي، ص43.

(33) ديوان الإمام الشافعي، ص157.

(34) ديوان الإمام الشافعي، ص106.

(35) ديوان الإمام الشافعي، ص81.

(36) ديوان الإمام الشافعي، ص148.

(37) ابن خلدون، العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد: **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، ج2، ط1، دمشق: دار البلخي، 1425هـ/ 2004، ص374، 375.

(38) ديوان الإمام الشافعي، ص72.

(39) علي، محمد محمد يونس: **مقدمة في علمي التخاطب والدلالة**، ط1، بيروت- لبنان: دار الكتاب الجديدة المتحدة، ص30

(40) ديوان الإمام الشافعي، ص26.

(41) ديوان الإمام الشافعي، ص39.

(42) ديوان الإمام الشافعي، ص72.

(43) الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن: **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: الشيخ بهيج غزاوي، بيروت: دار إحياء العلوم، 1419هـ/ 1998، ص335

(44) ديوان الإمام الشافعي، ص14.

(45) ابن الأثير، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين: **الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور**، المحقق: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، 1375، ص199.

(46) ديوان الإمام الشافعي، ص10.

(47) ديوان الإمام الشافعي، ص26.

(48) ديوان الإمام الشافعي، ص43.

(49) ديوان الإمام الشافعي، ص97.

(50) ديوان الإمام الشافعي، ص20.

المراجع بالحروف اللاتينية

References in Roman Script

(1) Ābn ālāṯyr, nṣr āllh bn mḥmd bn mḥmd bn ʿbd ālkrym ālšybāny, ālǧzry,bw ālftḥ, ḍyāʾ āldyn, ālǧāmʿ ālkbyr fy ṣnāʿẗ ālmnẓwm mn ālklām w ālmnṯwr, edited by: mṣṭfā ǧwād، mṭbʿẗ ālmǧmʿ ālʿlmy, 1375,P.199.

(2) Ābn ḥǧh ālḥmwy, ālšyḫ tqy āldyn ābw bkr bn ʿly: ḫzānẗ ālādb wġāyẗ al-ʾarb, edited by: ʿṣām šʿytw, Vol.1, Beirut: dār wa mktbẗ ālhlāl, 2004, P. 156.

(3) Ābn ḫldwn, ālʿlāmh wly āldyn ʿbd ālrḥmn bn mḥmd: mqdmẗ ābn ḫldwn, edited by: ʿbd āllh mḥmd āldrwyš, part 2, 1st ed, Demascus: dār ālblḫy, 1425 A.H -2004, PP. 374 - 375.

(4) Ābn mnẓwr abw ālfḍl ǧmāl āldyn mḥmd bn mkrm ābn mnẓwr al-ʾafrīqīālmṣry: lsān ālʿrb, Vol.12, Beirut: dār ṣādr, PP.140-144.

(5) Ālḍālʿ, mḥmd ṣālḥ: "qḍāyā asāsyh fy ẓāhrẗ āltnġym fy āllġh ālʿrbyh", ālmǧlh ālʿrbyh llʿlwm ālinsānyh, ǧāmʿẗ ālkwyt, Vol.17, No. 67, 1999, P.30.

(6) Āldyḥāny, amynah sālm: "dwr ālmḥqqyn fy ʿādẗ bnāʾ ālsyāq ālṣwtya tahqyq: bšār bn brd an-mwḍǧā", ālmǧlh ālʿrbyh llʿlwm ālinsānih, ǧāmʿẗ ālkwyt, Vol 34, No. 39, 2021, P.161.

(7) ʿly, mḥmd mḥmd ywns: mqdmh fy ʿlmy ālṯḫāṭb w āldlālh, 1st ed., Beirut- Lebanon: dār ālktāb ālǧdy-dh ālmṯḥdh, P.30.

(8) Ālimām ālšāfʿy, bw ʿbd āllh mḥmd bn idrys: dywān ālimām ālšāfʿy ālmsmā ālǧwhr ālnfys fy šʿr ālimām mḥmd bn idrys, iʿdād w tʿlyq w tqdym: mḥmd ibrāhym slym, Cairo: mktbẗ ābn synā, P.41.

(9) Ālǧāḥẓ, ābw ʿtmān ʿmrw bn bḥr bn mḥbwb ālknāny: ālbyān wāltbyyn, edited by: ʿbd ālslām hārwn, 1st ed., 7Th ed, Cairo: mktbẗ ālḫānǧy, 1998, p.79.

(10) ʿyd, mḥmd ʿbd ālbāsṭ: "mstwyāt ālḥǧāǧ fy ālnṣ ālšʿry: qrāʾh fy dālyẗ ʿmr bn aby rbyʿh", ālmǧlh ālʿrbyh llʿlwm ālinsānyh, ǧāmʿẗ ālkwyt, Vol. 34, No. 135, 2016, P.181.

(11) Ḫṭāby, mḥmd: lsānyāt ālnṣ- mdḫl ilā insǧām ālḫṭāb, 1st ed., Beirut: ālmrkz ālṭqāfy ālʿrby, 1991, P.25.

(12) Ālḫṭyb ālqzwyny, ǧlāl āldyn mḥmd bn mḥmd bn ʿbd ālrḥmn: al-īḍāḥ fy ʿlwm ālblāġh, edited by: Ālšyḫ bhyǧ ġzāwy, beirut: dār iḥyāʾ ālʿlwm, 1419 A.H.1988 ., P.335.

(13) Ālsʿyd, ḥmwdy: "ālānsǧām wālātsāq ālnṣy ālmfhwm wālaškāl", mǧlẗ ālaṯr, ǧāmʿẗ bālmsylẗ, special edition, 2012, P.107.

(14) Ābn ḥǧh ālḥmwy, ālšyḫ tqy āldyn abw bkr bn ʿly: ḫzānẗ āladb wġāyẗ al-ʾarb, edited by: ʿṣām šʿytw, 7Th ed., beirut: dār wmktbẗ ālhlāl, 2004, P.156.